

حائط المبكى ٠٠٠ والبحث عن القط !!

دكتور/سعيد اسماعيل على

عندما كنا طلابا نطلب المعرفة الفلسفية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى الخمسينات ، كان يخيل لمثلئ أن هؤلاء الاساتذة الذين يدرسون لنا كالدكاترة عثمان أمين و ابراهيم بيومى مدكور وزكى نجيب محمود ويوسف مراد وأحمد فؤاد الأهوانى ومحمد أبو ريدة ، ليسوا بشرا كسائر خلق الله ، يريدون أحيانا ، فتقف أمام ارادتهم عقبة هنا وعقبة هناك ، وانما هم ، وان اتخذوا شكل البشر ، يملكون مفاتيح هذا الكون ٠٠٠ أليسوا هم الذين يحتلون قمة المعرفة أمامنا ؟ أليسوا هم الذين يمثلون أعلى مرحلة فى سلم العمل التعليمى ؟ ان عالم أحاديثهم يدور حول أساطين العلم والفكر فى العالم مثل أفلاطون وأرسطو وكانط وهيجل وديكارت ورسل وماركس ٠٠٠ ان العملة المفاهيمية التى يتداولونها هى : العقل ، والمعرفة ، والفكر والماهية والوجود .

ما الذى كان يجعلنا ننظر هذا كله ؟

أنه تصورنا لمصدر « السلطة » !

فى ريفنا المصرى ، ومنذ زمن لم يعد قائما الآن ، كان الذى يملك « علما » يستحوذ على قدر من التقدير والاحترام يفوق هذا الذى يحظى به أى ممثل لسلطة الحكومة ٠٠ عمدة ٠٠ مأمور ٠٠ شيخ بلد ٠٠ الخ . كان ممثلو السلطة الحكومية بيدهم القانون والعسكر ، لكنهم كانوا يمثلون أمام الجميع ، قوة التسلط والقهر والبطش وبالتالي ، لم يكن احترام الناس لهم الا خوفا من بطشهم أو طمعا فى رضائهم !

أما هؤلاء الذين « يعلمون » ، فلم تكن بأيديهم سلطة قانون ولا عسكر، ومع ذلك كان يرتبط بكون الذين « يعلمون » يمثلون « العلم الدينى » ، ومن ثم يكون ما يحظون به من تقدير واحترام مرتبطا بمكانة الدين فى قلوب أهل الريف ، الا أن هذا التقدير وذاك الاحترام انسحبا على كل « متعلم » حتى أن

الحاصل منذ أكثر من نصف قرن على « الابتدائية » كان دائماً شخصية مرموقة يهرع اليه كثيرون يطاردون منه الرأي والمشورة ، وإذا وصل الى رأى ، انصاع له الجميع ..

وهكذا كانت « المعرفة » قوة ٠٠٠ وكان « العلم » سلطة .

ومن هنا فعندما نجى نحن من القرى لنجلس أمام أساتذة الجامعة، كان طبيعياً أن يكون هؤلاء اباؤنا ليسوا مجرد « أساطين » علم ومعرفة ، وانما هم « أساطين » حياة ٠٠ وقادة مجتمع ٠٠ فاذا ضاقت بمثل السبيل ، وأمست يتلاييه المشكلات ، كانت عقول أمثالنا تتصور أن مثل هؤلاء الأساتذة حملة المعرفة ، وأعلام الثقافة ، بيدهم مفاتيح الحل والربط ، وعلى أيديهم تتبدد الغيوم وتنقشع السحب لتسطع شمس الاستقرار والطمأنينة . وعندما كنا نقرأ فى تاريخ كبار المفكرين أمثال طه حسين أن (الملك) كان يقابل الذين يسافرون فى بعثات للحصول على درجة الدكتوراه ، بذر فى أذهاننا ، أن هؤلاء المفكرين لابد أن الحكومة تستند الى رأيهم ومشورتهم !

ومن هنا كان حلمنا ٠٠ وكان دعاؤنا ، بأن يهب الله لنا من لدنه رشدا فنصبح من هذا النفر ، لا لشيء الا أمل فى أن نصبح مسار المجتمع ونصلح ما اعوج من شأنه !!

واتخذنا الأسباب ٠٠

حتى اذا انصرم بعض قليل من الستينات ، تحققت الخطوة الأولى نحو الأمل المرجو ، بعد انتقالنا الى أرض أخرى من تربية عين شمس .

بطبيعة الحال ، فان فترة (المعيدة) قد قربتنا من هذا العالم الذى كان يسحرنا ، وان لم تجعلنا بعد ، بعضاً منه ، لكنها ، والحق أقول ، قد خفقت الى حد كبير ، جزءا غير يسير من حالات التقديس التى كنا نحيط بها « دكاترة » العلم أيا كانت فروعه ومجالاته .

حتى اذا أقام الله علينا برخصة الدكتوراه ، وانتسبنا الى الهيئة التدريسية بالجامعة ، أخذنا نشمر عن سواعدنا لنمسك بمفاتيح الحل والربط ،

ولنبديد الغيوم والسحب ، فإذا بنا نكتشف أن ذلك كان كونه خوط القتاد ، كما يقولون ، فالمدرسون بالجامعة ، هم فى أدنى السلم الجامعى ، ولا يملكون من الأمر شيئاً ٠٠ وكم من مشروعات وأمانى حاولنا أن نسعى الى تحقيقها حلاً لمشكلات ، واقامة لنظم ، ودعوة لاتجاهات ، فيؤاد كل ذلك فى مهده ، رفضاً ، وحرباً ، أو تثار من حولها الشكوك وتزرع فى طريقها الأشواك ، أو يخوف كل من يحاول أن يتجمع ليعين ويساعد مدرسو الجامعة ، لا يكفى إذن أن يملكو فكراً وعلماً ، فهم يفتقدون سلطة اتخاذ القرار ، وأمامهم سباق حواجز عنيف ومخيف ، وهؤلاء الذين يمسكون مقاليد الأمور بأيديهم ، وتكون أعمالهم موضع النقد والاتهام ، هم الذين يقررون اذا ما كان المدرسون يستحقون أن يكونوا أساتذة مساعدين ام لا ؟!

ومن هنا ، فقد وقع فى ظن أمثالنا فى المرحلة الأولى من الانتساب الى هيئة التدريس ، أن الحلم الذى طالما داعب خيالاتنا ، لم يزل بعد بعيداً ، انه لكى نصل اليه ، فلا بد وأن نكون أساتذة !!

، شيئاً فشيئاً يتبين لنا أن المسألة ليست مسألة « رأى » و « فكر » و « علم » ، وانما هى « سلطة موقع » ٠٠

وبعد رحلة طويلة وصلنا بها الى « الأستاذية » الا أنه قد تأكد لنا أنها إذا كانت تمثل « قمة » الهرم الجامعى العلمى ، الا أن هذا الهرم العلمى كله يظل دون هرم آخر هو هرم السلطة « التنفيذية » ٠٠ تأكد لنا أن الحصل لا يجيء برأى القواعد ورغبات (الناس اللى تحت) ، وانما هو دائماً مربوط بقرار لا يجيء الا من (الناس اللى فوق) ! على الرغم من كل هذه الصور والأشكال الخادعة من مجالس الأقسام واللجان الجامعية والمجالس التى لا حصر لها ٠٠ سلطتها محدودة بالفروع والتفاصيل والجزئيات ، لكن السياسات العامة ، والفلسفة الرئيسية والخطوط الأساسية والمبادئ الحاكمة ، فهذه المجالس لا تصنعها ولا تضعها وانما « تنفذها » ؟!

كان طبيعياً فى ظل مثل هذا المناخ أن ترقى أحلام كثيرين فى هذا الجهاز العلمى الكبير ، أن يصبح الواحد منهم من أصحاب السلطان الجامعى ومادام هذا لا يتأتى دائماً بقوة الدفع العلمى وحدها ، كان من الطبيعى كذلك

أن يسدد منطق « المسايرة » لا « المغايرة » ، وتعلو القيم المرتبطة بالمثل السائر « اللى تغلب به ٠٠ العب به » !

ثم هيا الله لنا مواقف ، زادت القضية اشكالا وغموضا ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !

هيا الله لنا أن نشارك فى نوعين مستمرين من الاجتماعات : النوع الأول ، الجماهرة الكبرى من أعضائه ، رؤساء جامعات حاليين وسابقين ، والنوع الثانى ، الجماهرة الكبرى من أعضائه ، وكلاء ووزراء تعليم وتربية حاليين وسابقين ، فضلا عن عدد من العمداء سواء فى النوع الأول أو الثانى

كانت المفاجأة المؤلة ، أن النغمة السائدة فى النوع الأول هى ما يشبه البكاء على الأطلال ، وكلمات الأسى وعبارات الحسرة على كثير من أوجاع التعليم الجامعى المتمثلة فى مشكلات وأزمات سواء منها مايتعلق بالسياسات العامة أو نظم القبول ، أو المناهج والمقررات أو المسائل المالية ٠٠ الى غير هذا وذاك من هموم التعليم الجامعى !

ولا تختلف النغمة السائدة فى النوع الثانى عن تلك ، فهى ولولة مستمرة ، ونعى دائم للحال الذى وصلت اليه المدارس فى مختلف المراحل ، وشكوى وشكوى موجعة مما يحاصر مراحل التعليم من صعاب وعقبات تنوء بحملها الجبال !

وكان لابد وأن يقفز تساؤل الى ذهنى ، وأنقله الى هؤلاء وهؤلاء : ألستم أنتم الذين سیرتم وتسيرون التعليم الجامعى ؟ وألستم أنتم الذين سیرتم وتسيرون التعليم ما قبل الجامعى ؟ فان كانت هناك صور خلل وقصور فعلى أيديكم تمت ، وان كانت هناك سلبيات وثغرات فهى غرسكم ، واذا كانت هناك اقتراحات وآمال ، فعلى أيديكم يمكن أن تتم !

وتجىء الاجابة من هذا الفريق وذاك : « ماكانش ينغز » !

ويفسرون ٠٠ ويحاولون الايضاح ، فتتكاثف أمامى الغيوم ، وتتكاثر السحب وأصرخ من كل قلبى : اذا ، لماذا النقاش ؟ ولماذا الاجتماعات ، مادام

الأمر يصل هكذا الى طريق مسدود ٠٠ الى سقف القيادة التعليمية والقيادة الجامعية ، فتلتمس أنها مطلوبة الارادة ، وفي أحسن الأحوال محدودة الحرية ، مقيدة الحركة ؟

ويهمس فى أذنى واحد من الأصدقاء : لابد من إتاحة الفرصة للناس كى « يفضفضوا » و « وينفسوا » عن أنفسهم حتى اذا عادوا الى بيوتهم أو مكاتبهم ، زال التوتر وهذات الأعصاب ، فيستمترون فيما هم عليه ، وكفى الله المؤمنون القتال !

وهذا البكاء على الأطلال الذى نشير اليه فى أروقة الجامعات العربية وأجهزة التعليم ، تستطيع أن تلمس مثله تماما فى مختلف الكليات التى تجرى على أقلام المثقفين والسننتهم فى كل رجاء من أرجاء العالم العربى ٠٠ فى مقالاتهم ٠٠ فى بحوثهم ٠٠ فى كتبهم ٠٠ فى منندياتهم ٠٠ فى مؤتمراتهم: نقدا حادا للأوضاع القائمة ، كل فى مجاله ، اقتصاد أو صناعة ، أو تجارة ، أو تعليم ، أو زراعة ، أو ثقافة أو فن ٠٠ الخ . تشخيص ممتاز للمشكلات ، وتحليل جيد للأسباب والعلل ، ووعى عجيب بالكثير من الأبعاد والزوايا ، وتنوع مثير فى الاجتهادات وزوايا الرؤية ٠٠ ومع ذلك تظل المشكلات كما هى ٠٠ ويتوالى عقد المؤتمرات ، وتجربى بحوث جديدة على نفس المشكلات ، لي طرح نفس التشخيص وتبرز نفس الحلول وان تزين فى أشكال لفظية جديدة ، ثم يعود المسلسل مرة أخرى ليبدأ مسيرته من جديد .

بل انك ، اذا استقرأت كتابات غير العرب بحثا عن صور نقدهم لمجالات الحياة والثقافة والتعليم فى العالم العربى ، فسوف تلمس أن نقدهم ، مهما احتد ، فلن يصل الى درجة احتداد نقدنا نحن لأنفسنا فى مختلف كتاباتنا فى شتى المجالات ؟ ٠٠

هل تحول التعليم ، وتحولت الثقافة فى العالم العربى الى حائط مبقى ؟! فى دراسته الممتازة عن (سيكولوجية الانسان المقهور) ، يشير الدكتور مصطفى حجازى الى أن الانسان الذى يتعرض طويلا لقوى البطش والقهر والاستغلال يعيش انسانا مسحوقا ، يعانى من مشاعر الدونية والعجز ، يفترق الى ذلك الاحساس بالقوة والقدرة على المجابهة الذى يمد الحياة بنوع

من الحيوية والايجابية ٠٠ تبدو الأمور لمثل هذا الانسان المسحوق ، وكأن هناك باستمرار ، انعداماً فى التكافؤ بين قوته وقوة الظواهر التى يتعامل معها ، ومن ثم يجد نفسه فى أحيان كثيرة فى موقع المغلوب على أمره « يفتقد الطابع الاقتحامى فى السلوك » ٠٠

ومن الأساليب الدفاعية التى يلجأ اليها الانسان المقهور : أن يتوحد يقاهره فيوجه عدوانيته الى ذاته هو كـمقهور على شكل مشاعر ذنب ودونية والخط من قيمته الذاتية ، بل ويمتد ذلك الى التبخيس لقيمة الجماعة الأصلية التى ينتمى اليها « وينطلق المرء فى مجموعة أحكام سلبية ، تجعله لا يرى خيراً أو عزة فى ذاته ٠ انها مصدر التقصير ، ومجمع العيب وموضع الهوان ٠ وصب الحقد على الذات لعجزها وفشلها فى التصدى للمتسلط أو مجابهة قانون الطبيعة ، يتغذى من مشاعر ذنب شديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات » ٠

عندما كان اللورد كرومر يمثل الاحتلال البريطانى فى مصر فى أوائل عهده. نشطت حركة الهجوم عليه وعلى جنوده على صفحات الصحف المصرية. ورأى بعض مساعدى كرومر ، أن الأمر قد تجاوز الحدود ، فذهبوا اليه يرجونه اتخاذ اجراء ما لوقف حدة هذا النقد والهجوم ، فاذا به يقول : اتركوهم يقولون ما يريدون ، وسوف نفعل نحن ما نريد !! ان العربى عندما يكتب أو يخطب ناقداً ، يظن أن هذا الجهد الكلامى « هو نهاية المطاف ، فتهدأ نفسه ويخف توتره ، لكنك اذا منعت هذا النقد وذاك الهجوم ، فان طاقات الغضب المكبوت ستتحول الى طاقة (تحريك) وفعل ايجابى !!

ويبدو أن بعضاً من أولى الأمر فى عالمنا العربى ينهجون نفس النهج فيتباهون بأنهم قد أتاحوا ديمقراطية وحرية فى مجتمعاتهم ، فيندفع كثير من الكتاب والمفكرين الى النقد ، وعندما يجدون أن الحال هو الحال ، تحولوا الى نقد الذات والوقوف أمام حائط الميكى !

لقد درجت العادة عندما يعز علينا حل الاشكال ، أن نضرب المثل بمجموعة الفئران التى تعبت وضاعت بها السبيل أمام هجوم القطط عليها ، فاقترح أحدهم أن يعلقوا جرساً فى رقبة القط ، حتى يحسوا به ان هم واتجه

اليهم ، فارتاحوا الى هذا الاقتراح ، فلما بدأوا ينتقلون الى التنفيذ ، تساءلوا:
فمن ذا الذى يمكن أن يعلق الجرس فى رقبة القط ؟ واذا بالجميع يصلون
الى طريق مسدود ..

وقد كدنا أن نستخدم هذا المثال النموذجى ، لكننا اكتشفنا مأزقا أدهى
وأمر ، فليست القضية هى من يعلق الجرس فى رقبة القط ، ولكنها فى تحديد
هذا القط والكشف عنه ؟ !